مجلة الدراسات الإيرانية

دراسـات وأبحـاث علميـة متخصصـة

مجلة علمية نصف سنوية محكمة تصدر باللغتين العربية والإنجليزية

السنة الثامنة – العدد التاسع عشر – أبريل 2024م

تصدر عن

RASANAH
المعهد الدولي للدراسات الإيرانية
International Institute for Iranian Studies

دور إيران والفواعل الفصائلية في عملية طوفان الأقصى.. الأدوات ومردود السياسات

علـــي بكـــر

أكاديمي وباحث في العلاقات الدولية

الملخص:

لم تكُن عملية «طوفــان الأقصى» عملية عابــرة وعفوية نفَّذتها حركــة «حماس» دون تخطيط مُسبَق ووجود دعْمٍ إستراتيجي مؤثِّر وفاعل، إذ كانت هذه العملية بمثابة خط فاصل ما بين مرحلتين مختلفتين من الصراع للفاعل المســلَّح العنيف «حماس» مع إسرائيل، إذ أصبح الحديث عن القضية الفلســطينية وفق سياق ما قبل وما بعد مرحلة الطوفان. ولعلَّ الوقوف على أبــرز الارتدادات الأمنية والإســتراتيجية ومراجعة اســتعدادات «حماس» السابقة وارتباطاتها، هو محور التناول في هذه الدراسة لبحث إشكالية معقَّدة تتعلَّق بدور إيران في هذه العملية، لا سيّما أنَّ طهران وظَّفت هذه العملية إستراتيجيًّا وتدافعت إقليميًّا لتتصدَّر المشهد، عبر أدواتها الفاعلة العنيفة على الأرض في العراق وسوريا واليمن ولبنان، وكان لها دور بارز في صياغة إســتراتيجية التصعيد منخفِض الحِدَّة تجاه الولايات المتحدة وإسرائيل عبر هذه الفواعل العنيفة. وبذلك، أرسلت إيران بمجموعة من الرسائل، أهمُّها أنَّها تمتلك أدوات فصائلية مؤثِّرة في المنطقة، تســتطيع تنشيطها أو تجميدها بالطريقة التي تتّفِق مع أهداف إيران في المنطقة.

الكلمات المفتاحية:

إيــران، طوفان الأقصى، حرب غــزة، المليشــيات الإيرانية، حماس، إســرائيل، الولايات المتحدة، حزب الله، الحوثيين.

Iran and the Role of Factional Groups in Operation Al-Aqsa Flood: Tools and Policy Outcomes

Abstract:
Operation Al–Aqsa Flood was not a spur–of–the–moment action by Hamas; it was meticulously planned with strategic support. This operation marked a significant shift in the conflict between Hamas and Israel. Discussions on the Palestinian issue now revolve around the pre and post–Al–Aqsa Flood phases. Examining Hamas' prior preparations and connections sheds light on Iran's role. Tehran strategically leveraged the operation, using its influence in Iraq, Syria, Yemen and Lebanon. Iran's aim was to assert dominance in the region by orchestrating low–intensity escalations against the United States and Israel. This sent a clear message: Iran wields significant influence through its proxies, which it can activate or deactivate in alignment with its regional goals.

Key Words:
Iran, Al–Aqsa Flood, Gaza war, Iranian militias, Hamas, Israel, the United States, Hezbollah, the Houthis.

المقدِّمـــة

شكَّلـــت عملية «طوفان الأقصى» حالـــة فريدة وجديدة ومتقدِّمة في مـــا يُعرَف بالصراع العربي-الإسرائيلي، وتحديدًا الفلسطيني-الإســـرائيلي، لا سيّما على المستوى المسلَّح، فقد كانت هذه العملية بمثابة تحوُّل كبير لم تشـــهده الساحة الفلسطينية منذ عام 1973م، لما خلَّفته من انعكاسات كبيرة على الواقع الفلســـطيني والعربي والعالمي على حدٍّ سواء. ولعلَّ أبرز ما يمكن الحديـــث عنه في هذه العملية هو أمـــران، الأول: إمكانيات «حماس» القتاليـــة، والثاني: الجهوزية العالية، التي أبدتها في المباغتـــة والمبادرة واتّخاذ هكذا قرار إســـتراتيجي كبير، وهو الأمر الذي يقودنا مباشرةً إلى علاقة الحركة وبقية فصائل المقاومة الفلسطينية مع إيران وأذرعها الإقليمية، إذ كما هو ثابت باعتراف هذه الحركات نفسها، فإنَّها تلَّقت دعمًا ماليًّا وعســـكريًّا كبيرًا جدًّا من إيران، خلال فترات سابقة. وأسهمت إيران بشكل واضح في تطوير قُدراتها عبر التدريب والتأهيل، ســـواء بصورة مباشرة، أو عبر التنسيق مع الفواعل الفصائلية التابعة لإيران في العراق وسوريا ولبنان. ولا شكّ أنَّ تطوير إيران قُدرات «حماس» قد وفَّر لها الجهوزية للمبادرة بتنفيذ هجومها الواسع داخل الأراضي المحتلَّة في غلاف غزة، في الســـابع من أكتوبر 2023م. وعلى الرغم من أنَّ حركة حماس قد اتّخذت قرار الهجوم دون تشـــاوُر مع إيران، لكن عمِلَت إيران على توظيفها لتعزيز مكانتها ونفوذها، كما كانت لهذه العملية ارتدادات على إيران، فقد وجدت نفســـها منخرِطة في مواجهة إقليمية مع الولايات المتحدة وإســـرائيل، وحائرة بين شـــعاراتها المُعلَنة حول فلسطين وبين خطر الدخول في مواجهة مُكلِّفة.

وتحـاول هـذه الدراسـة أن تكشـف أبعـاد دور إيـران فـي هـذه العمليـة، وكيـف عملـت إيـران علـى توظيفهـا، فـي إطـار إسـتراتيجيتها الإقليميـة، ومـا فرضتـه هـذه العمليـة مـن تداعيـات وفُـرَص وتحدِّيـات علـى إيـران، وعلـى نفوذهـا الإقليمـي.

أولًا: علاقة إيران بالفصائل الفلسطينية و«حماس» ضمن إستراتيجية إيران الإقليمية

تمثِّل القضية الفلسطينية قضية مركزية في الخطاب الأيديولوجي الإيراني، وقد حاولت أن تجعلها أحد محاور سياســـاتها الخارجية على مدار عقود، لكنَّها مع الوقت باتت ورقة مهمَّة توظِّفهـــا لخدمة تطلُّعاتها وفق معايير واقعية وبراغماتية. ويمكن أن نُشـــير إلى مكانة هذه القضية وعلاقة إيران بها، ودور إيران ومليشياتها في تسليح فصائل المقاومة الفلسطينية، على النحو الآتي:

1. أهمِّية القضية الفلسطينية لإيران:

أدركت إيران، ومنذ الأسابيع الأولى لمرحلة ما بعد احتلال العراق عام 2003م، أنَّ إستراتيجية توازُن القُوى الإقليمي لم تعُد تلبِّي طموحات ورغبات الأمن القومي الإيراني، لا ســـيّما بعد انهيار إحدى ركائز هذا التوازن، وهو العراق، الذي ولَّد انهياره حالة من الفراغ الإســـتراتيجي

الكبيـــر في المنطقة، الأمر الذي دفع إيران إلى التمدُّد الإقليمـــي، إذ عمِلَت إيران على تنفيذ إســـتراتيجيتها الجديدة، من خلال تشكيل الكيانات الموازية والرديفة خارج الحدود. ووجَّه الحرس الثوري هذه الكيانات لتشارك الدولة في قيادة ملفات الأمن والاقتصاد والسياسة، ومن ثمَّ حازت إيران نفوذًا عسكريًّا وسياسيًّا في هذه الدول. وإلى جانب ذلك، وظَّفت إيران العامل الاجتماعي والمذهبي، وأدمجـــت ذلك مع ادِّعائها نُصرة قضايا عديدة في المنطقة، على رأســـها القضية الفلسطينية، فضلًا عن قضية ظُلم الشـــيعة من الأنظمة السياسية الحاكمة، في دول مثل العراق والبحرين والسعودية ولبنان واليمن، ما سوَّغ لها الدخول إلى معظم هذه الدول، ومحاولة التأثير الاجتمَّاعي فيها لغرض تحقيق تأثير سياســـي أكبر على المستوى الإستراتيجي[1].

وفـي مـا يخُـصّ القضيـة الفلسـطينيـة تحديـدًا، رُبَّمـا أصبـح مـن الصعـب الحديـث عنهـا بعـد عـام 2003م، علـى المسـتوى الدولـي والإقليمـي، دون المـرور بالـدور الإيرانـي المعقَّـد، الـذي يشـوبه كثيـر مـن الجـدل، إذ اسـتخدمت إيـران القضيـة الفلسـطينيـة فـي مناسـبات عديـدة، واسـتفادت ممّـا تفعلـه إسـرائيـل مـن عمليـات عسـكريـة تجـاه الفلسـطينيين، ومـا يقدِّمـه عديـد مـن القُـوى الغربيـة، وعلـى رأسـها الولايـات المتحـدة، مـن دعْـمٍ إسـتراتيجي كبيـر لإسـرائيـل، اسـتخدمته إيـران لتعزيـز مكانتهـا ومحورهـا الإقليمـي، فـضلًا عـن قوَّتهـا الناعمـة علـى الصعيديـن العربـي والإسلامـي، إذ بـرَّرت إيـران هـذه القضيـة لدخولهـا فـي صراعـات إقليميـة كبيـرة تجـاه أنظمـة سياسـية عربيـة تصفهـا إيـران بأنَّهـا «عميلة لإسـرائيـل والغـرب»، ومجتمعـات عربيـة خذلـت القضيـة الفلسـطينيـة وأصبحـت دون نُصـرة. هـذا إلـى جانـب أنَّ إيـران اسـتخدمت فكـرة المقاومـة وأسَّسـت محـورًا إسـتراتيجيًّا شـاملًا، ضمـن مـا يُعـرَف بـ«نظريـة أُم القـرى»، تحـت ذرائـع متعـدِّدة الأغـراض الإسـتراتيجية، منهـا تحريـر فلسـطين. وشكَّلـت فصائـل مسـلَّحة، ونفـذت عمليـات تضليـل إعلامـي وسياسـي كبيـر انجـرف إليـه بعـض المجتمعـات العربيـة، التـي باتـت تـرى إيـران باعتبارهـا جهـة داعمـة للمقاومـة، فـضلًا عـن توظيـف القضيـة لتحقيـق اسـتمالات اجتماعيـة واسـعة، تُضيـف مـن خلالهـا إيـران شـرعية إلـى نفسـها، باعتبـار أنَّ القضيـة الفلسـطينيـة قضيـة عادلـة لشـعب مظلـوم، وبالتالـي مـن السـهل أن تمنـح إيـران مكاسـب ومكانـة خاصَّـة.

مـع ذلـك، يجـب عنـد تنـاوُل علاقـة إيـران بفصائـل المقاومـة الفلسـطينيـة، بمـا فـي ذلـك «حمـاس»، أن نفـرِّق بيـن معياريـن، الأول: الأيديولوجـي العقائـدي، الـذي يحكُـم علاقـة إيـران بالفصائـل الشـيعية المؤمنـة بـ«ولايـة الفقيـه»، وبعلويـة المرجـع الإيرانـي الأعلـى علـي خامنئـي، أي إنَّ هـذه الفصائـل تُقاتـل ضمـن منظومـة عقائديـة وأُطُـر مذهبيـة تأتمـر بمرجعيـة خامنئـي، وليـس حمايـةً لدولهـا أو أوطانهـا، بـل إنَّهـا تخـدم فكـرة عقائديـة عابـرة للحـدود الوطنيـة للـدول. غيـر أنَّ الهـدف الإيرانـي الأساسـي هـو تحقيـق نـوع مـن النفـوذ

والتأثير في هذه الدول، عبر توظيف العقيدة وليس نصرةً للعقيدة بشكل فعلي، وليس أدلَّ على ذلك سوى واقع حال الشيعة البائس في هذه الدول.

والمعيار الثاني، وهو البراغماتي المصْلحي، هو الذي يحكُم علاقة إيران ببعض الجهات، التي لا تشارك إيران الأيديولوجيا والعقيدة، لكن من خلاله استكملت إيران فكرة التوظيف الإيراني وجعْلها أكثر شمولية، إذ استطاعت إيران أن تتخادم وتلعب على فصائل غير عقائدية براغماتية، مثل «حماس» و«الجهاد الإسلامي»، وإلى حدٍّ ما «الحوثيين» في اليمن. بالتالي، امتلكت إيران أكثر من مؤثِّر ومحرِّك عام للأحداث في هذه الدول، إذ إنَّ الفراغات الأمنية، التي ظهرت في هذه الدول نتيجةً لانهيار دور المؤسَّسات الأمنية الرسمية ونمو الجماعات الإرهابية المتطرِّفة من جرَّاء الأحداث، التي مرَّت بها، جعل من إيران ذات إمكانية للتأثير في مساحات إضافية للتعاون مع جهات براغماتية تخدم الأمن القومي الإيراني[2].

2. الدعم الإيراني المباشر لـ«حماس»:

حصلت حركة حماس على دعْم مباشر من إيران، ودعْم غير مباشر عن طريق فصائلها في مناطق النفوذ في العراق وسوريا ولبنان. والأرجح أنَّ «حماس» لم تصِل إلى هذه الإمكانيات الصاروخية والجوِّية عن طريق الجهد الذاتي فقط، بل إنَّه من الواضح أنَّ لـ«حماس» شراكاتٍ إستراتيجيةً مع فصائل مسلَّحة وأنظمة سياسية ودول، أسهمت بشكل مباشر في تطوير هذه القُدرات، وزوَّدت «حماس» بالفُرَص المناسبة لتدريب الكوادر البشرية الخاصَّة بها، وحصولهم على شهادات جامعية عُليا في إيران وسوريا والعراق ومصر وتركيا وماليزيا والأردن ولبنان وتونس وجورجيا وروسيا وأرمينيا، وحتى في الولايات المتحدة الأمريكية. ولعلَّ الجداول المرفقة توضِّح طبيعة الصواريخ والطائرات المسيَّرة، التي تمَّتلكها «حماس»، وكيف استطاعت تطويرها داخل وخارج غزة عبر الدعم، الذي تلقَّته من أطراف عديدة، على رأسها إيران.

جدول (1): القُدرات الصاروخية لـ«حماس» وعلاقة إيران بها

اسم الصاروخ	المدى	مصدر الصُّنع	التطوير
فجر 3	43 كم	إيران	غير مطوَّر
فجر 5	75 كم	إيران	غير مطوَّر
M302	180 كم	سوريا	غير مطوَّر

اسم الصاروخ	المدى	مصدر الصُّنع	التطوير
قسّام 12	12 كم	غزة بدعم خارجي	مطوَّر
قسّام 20	20 كم	غزة بدعم خارجي	مطوَّر
S 55	55 كم	غزة بدعم خارجي	مطوَّر
J 80	80 كم	غزة بدعم خارجي	مطوَّر
M 75	75 كم	غزة بدعم خارجي	مطوَّر
J 90	90 كم	غزة بدعم خارجي	مطوَّر
A 120	120 كم	غزة بدعم خارجي	مطوَّر
SH 85	85 كم	غزة بدعم خارجي	مطوَّر
عيّاش 250	250 كم	غزة بدعم خارجي	مطوَّر

المصدر: صواريخ حماس «أذهلت» إسرائيل.. ما أنواعها وقُدرتها العسكرية؟، (8 أكتوبر 2023م)، تاريخ الاطلاع: 30 أبريل 2024م، https://2h.ae/GfCp

كان برنامج «أبابيل»، الخاص بالطائرات المسيَّرة، واحدًا من أبرز ملامح العَلاقة بين إيران و«حماس»، على مستوى تطوير القُدرات الجوِّية المتعلِّقة بالطائرات المسيَّرة، إذ تلقَّى المهندس التونسي محمد الزاوي ومنذ فترات مبكِّرة بعد عام 2005م تدريبات مكثَّفة في إيران على صناعة الطائرات المسيَّرة. وقد صنَعَ محمد الزاوي أكثر من 30 طائرة عام 2008م لكن جرى استخدامها بعد عام 2014م في الحرب ضدّ إسرائيل لأسباب فنِّية تتعلَّق بتطويرها. وإثر ذلك، اغتالت إسرائيل محمد الزاوي في تونس عام 2016م، كما اغتالت فادي البطش في ماليزيا عام 2018م، فضلًا عن استهداف منشآت خاصَّة داخل غزة لأغراض تطوير الطائرات المسيَّرة، كان يعمل فيها أكثر من 15 مهندسًا متخصِّصًا تلقَّوا تدريبهم في إيران وتركيا والعراق ودول أخرى[3].

جدول (2) :الطائرات المسيَّرة لدى «حماس» وعلاقة إيران بها

اسم الطائرة المسيَّرة	المهام	مصدر الصُّنع	التطوير والتركيب
أبابيل 1 أو A1A	استطلاعية	صُنعت القطع الرئيسية في إيران	غزة
أبابيل 1 أو A1B	هجومية قاصفة	صُنعت القطع الرئيسية في إيران	غزة
أبابيل 1 A1C	انتحارية	صُنعت القطع الرئيسية في إيران	غزة
شهاب	انتحارية	غزة مع دعم خارجي	غزة
الزواوي	انتحارية	غزة مع دعم خارجي	غزة

المصدر: موقع العربي، من بينها الزواوي.. تعرَّف ترسانة المسيَّرات لدى كتائب القسّام، (9 ديسمبر 2023م)، تاريخ الاطلاع: 30 أبريل 2024م، https://2h.ae/

3. دور الفواعل الفصائلية في تعزيز قوَّة «حماس»:

قد يوجد غموض حول الطريقة، التي أوصلت بها إيران دعمها العسكري إلى فصائل المقاومة الفلسطينية، وهُنا قد يمكن القول إنَّ عديدًا من الإمكانيات التكنولوجية، التي تخُصّ تصنيع وتطوير الصواريخ والطائرات المسيَّرة والغوّاصات الصغيرة، التي استخدمتها حماس في عملية «طوفان الأقصى» ضدّ إسرائيل، رُبما مرَّت عبر الحدود العراقية-السورية من خلال الوكلاء المحلِّيين الموالين لإيران. وهذا الطرح يقودنا إلى تصريح قائد القوَّة الجوِّية في الحرس الثوري الإيراني، أمير علي حاج زاده، عام 2021م، حينما قال: «غزة ولبنان على الخطوط الأمامية لهذه الحرب، لقد كانت قُدراتهما الصاروخية متزايدةً بسبب دعْم جمهورية إيران الإسلامية[4]».

من جهة ثانية، فإنَّ جزءًا كبيرًا من الصواريخ والطائرات المسيَّرة والمفخَّخة، التي استخدمتها حركة حماس، رُبما صُنِّعت أجزاء منها في المصانع الإيرانية المنتشرة في مناطق النفوذ بسوريا والعراق، فضلًا عن إرسال إيران مجموعة كبيرة من المعدَّات اللوجستية، التي تُستخدَم في تصنيع الطائرات المسيَّرة عبر الحدود العراقية-السورية، ومن ثمَّ نُقلت عبْر الأنفاق إلى غزة أو عبْر البحر[5].

وتُشير تقارير إلى أنَّ إيران استخدمت الحدود العراقية-السورية لنقل المعونات المالية المباشرة إلى «حزب الله» اللبناني وحركة «حماس» كذلك، إذ بلغ حجم الدعم

الإيراني لحركة «حماس» أكثر من 30 مليون دولار في الشهر، وذلك لتأسيس شبكة أنفاق معقَّدة داخل غزة، استخدمتها «حماس» في عملية «طوفان الأقصى»، ولا تزال تستخدمها حتى الآن في مواجهة إسرائيل[6].

ولا يفوت التنويه بأنَّ إيران لعِبَت دورًا مُهمًّا في المصالحة، التي حدثت بين النظام السوري وحركة حماس بعد عام 2017م، وبالتالي عمِلَت إيران على تطوير الإمكانيات القتالية الفردية والجماعية لمقاتلي «حماس» في معسكرات خاصَّة أنشأتها الفصائل المسلَّحة داخل العُمق السوري. وقد استخدمت إيران الطُّرق البرِّية المارَّة بالعراق من أجل رفْد حركة حماس بأحدث التكتيكات القتالية المتعلِّقة بالقتال «جو-ظأرض»، أو ما يُعرَف بـ«القتال الشراعي»، «التي جرى تطبيقها في عملية طوفان الأقصى»[7].

ورُبما لم يغِب عن إيران أهمِّية استكمال مشروع التمدُّد العابر للحدود بالتأسيس لنفوذ عميق المستوى على الخط الشريطي الساحلي المُطِلّ على البحر المتوسِّط، الذي يشمل موانئ اللاذقية وبانياس والحميدية وطرطوس وبيروت، حيث دخلت شركة «خاتم الأنبياء»، وهي شركة مقاولات إيرانية تمثِّل الذراع الاقتصادية للحرس الثوري، لبناء أرصفة إضافية وتطوير بعض المنشآت على الساحل لتصدير النفط والفوسفات والغاز، فضلًا عن دخول الشركة في مشاريع التنقيب على الغاز بالشراكة مع الروس[8].

في العموم، لم تكُن وظيفة السيطرة الإيرانية على الموانئ والساحل في سوريا ولبنان فقط لأغراض تخُصّ النقل وإمدادات الطاقة وتحقيق التوازن الإقليمي وصياغة نظرية ردْع باتّجاه إسرائيل فحسب، بل وظَّفت إيران إمكانياتها لأغراض تتعلَّق بتطوير قُدرات «حماس»[9].

وهُنا يُشار إلى إنشاء مصانع لصناعة الغوّاصات المصغَّرة في سوريا ولبنان، كان لها دور كبير في نقْل التكنولوجيا والصواريخ والمعدَّات اللوجستية الأخرى من الساحل السوري واللبناني إلى غزة، حيث دعمت إيران عشرات الطلاب لدراسة الهندسة والاتصالات والتخصصات ذات العلاقة في تركيا وماليزيا وطهران، من ثمَّ عادت هذه الموارد البشرية إلى العمل في مشاريع «حماس» العسكرية، وبمساعدة الإيرانيين بشكلٍ مباشر[10].

كذلك أسهمت عملية السيطرة الإيرانية على استخدام السُّفُن التجارية الخاصَّة في نقل النفط والفوسفات والبضائع من الساحل السوري إلى عرض البحر، حيث طوَّر الحرس الثوري الإيراني بناء قواعد عمليات بحرية تكون مهامها تنفيذ إنزالات في عُمق البحر (داخل المياه الدولية)، قبالة ساحل غزة بعشرات الكيلومترات. إذ تكون مهمَّة هذه الإنزالات هي تعزيز القُدرات العسكرية والصاروخية لـ«حماس»، إذ يجري إلقاء الطرود العسكرية في عُمُق البحر من قوّات الحرس الثوري الإيراني أو قوّات سورية أو تابِعة

لـ«حزب الله» على هيئة سُفُن تجارية، لكي تتلقَّفها الطرادات التابعة للقوَّة البحرية لحركة حماس «قوة النُخبة»، وتعمل على تفكيكها في عرض البحر، ونقلها إلى سفن وغواصات مسيَّرة، فضلًا عن طائرات شراعية مصغَّرة تأخذها باتجاهات متعدِّدة، ومنها إلى أنفاق بحرية تنتهي في غزة على الشريط الساحلي، وأخرى قريبة من رفح، حيث نقلها عبر الأنفاق إلى داخل غزة[11].

بالإضافة إلى ذلك، كان من بين مهام الموانئ في الساحل السوري واللبناني تطوير قُدرات «حماس» على الطيران الشراعي، ونقْل معدَّات الحفر الخاصَّة بحفر الأنفاق وتمرير أدوات الحرب السيبرانية، والتدريب على عمليات الإنزال البحري والقتال عبر الزوارق، إذ استخدمت «حماس» هذه التكتيكات خلال عملية «طوفان الأقصى». وأغلب التحليلات العسكرية والاستخباراتية يشير إلى أنَّ هذه العمليات التي استخدمت فيها «حماس» القتال «جو-أرض» و«بحر-بر» و«جو-بحر»، لم تكُن إلّا عمليات جرى الإعداد لها مُسبَقًا بصورة احترافية[12].

ثانيًا: دور إيران في هجوم «حماس» والتوظيف لعملية «طوفان الأقصى»

لا شكَّ أن مساعدات إيران العسكرية لحركة حماس مكَّنتْها من تنفيذ العملية في السابع من أكتوبر، إذ أطلقت «حماس» خلال الساعات الأولى من عملية «طوفان الأقصى» أكثر من 5 آلاف صاروخ سقطت في مناطق متعدِّدة من الأراضي المحتلَّة، سواء في منطقة غلاف غزة، أو على أطراف تل أبيب. واستمَّرت هذه الرشقات الصاروخية بالاتّساق مع عملية اقتحام برِّي وبحري وجوِّي لاقتحام المعسكرات والمنشآت، التي وضعتها «حماس» ضمن دائرة الاستهداف في مناطق سديروت وعسقلان وباقي غلاف غزة. وقد رافق عملية إطلاق الصواريخ استخدام مجموعة كبيرة من الطائرات المسيَّرة، التي نفذت مهمَّتين رئيسيتين[13]: الأولى: الرصد والمتابعة وإبلاغ القوَّة المهاجمة بتحرُّكات الجيش الإسرائيلي، **والثانية:** العمليات الانتحارية المسيَّرة تجاه القوّات الإسرائيلية، و«تحديدًا استهداف أبراج المراقبة في منطقة غلاف غزة»، لاستمرار حالة المباغتة والمفاجأة، التي افتعلتها «حماس» لإرباك الجيش الإسرائيلي.

والحقيقة أنَّه لم تكُن «حماس» لتنجح في عملية «طوفان الأقصى» لولا وجود إمكانيات تكنولوجية وجوِّية وبشرية قادرة على إدارة ملف معقَّد يتعلَّق بالطائرات المسيَّرة والصواريخ، التي أصبحت أكثر دقَّة. وهذه الطائرات كان يُصنَّع جزء منها داخل غزة، وجزء آخر يأتي إلى غزة من الخارج عبر البحر، أو الأنفاق على شكل طرود مفكَّكة، يُعاد تركيبها بشكل مباشر داخل غزة من خلال مهندسين مدرَّبين على هذه المهمَّة[14].

كذلك، شكَّلت الهجمات السيبرانية واحدة من أهمِّ أركان نجاح عملية «طوفان الأقصى»، عبر وقف الكاميرات الحرارية وكاميرات المراقبة في الجدار الفاصل بين قطاع غزة والمستوطنات الإسرائيلية، فضلًا عن تنفيذ هجمات لمشاغلة الأجهزة

السيبرانية الإسرائيلية تجاه عشرات المواقع الإسرائيلية الحكومية والأمنية، إذ اهتمَّت حركة حماس بتأسيس ما يُعرَف بسلاح «السايبر» منذ عام 2014م. هذا السلاح يضُمُّ عشرات المبرمجين والمتخصِّصين في مجال التكنولوجيا والاختراقات، يوجدون داخل غزة، وفي دول أخرى مثل تونس ومصر وإيران وتركيا والأردن، وهؤلاء أسهموا بشكل مباشر في إنجاح عملية «طوفان الأقصى»[15].

كما أنَّ تطوير قُدرات «حماس» من الجانب الإيراني، في ما يتعلَّق بالإمكانيات البشرية واللوجستية وبأدوات تتعلَّق بالقتال البحري وقتال السواحل والانغماس في العُمق الإسرائيلي ونصْب الكمائن والعمليات الخاطفة والسريعة، قد جرى توظيفه بشكل مباشر في عملية «طوفان الأقصى»، فقد أشارت تقارير استخباراتية إسرائيلية، كُشف عنها، إلى أنَّ قوَّة النُّخبة البحرية التابعة لحركة حماس قد كانت في طليعة المجموعة، التي نفَّذت عملية «طوفان الأقصى»، وتحديدًا في ساحل زيكيم، حيث اقتحمت القاعدة «بهاد 4» العسكرية، بل إنَّ جزءًا كبيرًا من الحسم جاء عبر هذه المجموعة، كونها نفذت إنزالات بحرية خاطفة أربكت بشكل كبير الجيش الإسرائيلي، وجعلته في حالة تخبُّطٍ كبير[16].

ومن الواضح أنَّ المجموعة المنفِّذة قد تدرَّبت بشكل عالي المستوى (على أقلّ تقدير جزء من المجموعة المهاجمة)، على الطيران المظلِّي، والقتال البشري «جو-أرض»، وعلم الخرائط، والتحليل الاستخباراتي، والقتال المنفرد، في دولة قريبة (قد تكون سوريا أو لبنان، ورُبما العراق أو إيران)، ورُبَّما دول أخرى أسهمت بشكل كبير في تطوير قُدرات المجموعة المسلَّحة المهاجِمة. هذا التدريب أسهم بشكل عالي الدقَّة في إنجاح عملية التسلل داخل العُمق الإسرائيلي.

وبعد أن شنَّت إسرائيل هجماتها على قطاع غزة بهدف القضاء على «حماس»، دخلت الفصائل المسلَّحة في العراق وسوريا ولبنان واليمن حالة من حالات التصعيد منضبِط الحدَّة ضدّ أهداف أمريكية وإسرائيلية. وقد ردَّت إسرائيل، وفي أكثر من مناسبة على هذا التصعيد داخل هذه الدول، عبر الاستهداف المباشر من خلال سلاح الجو لضرب مواقع عسكرية أو شبه عسكرية لإيران وحلفائها من الفصائل. وقد كان جزء من هذا التصعيد هو ما أعلنته جماعة الحوثي في اليمن عن دعمها الكامل لهذه العملية، وأبدت استعدادها التام للاشتراك بشكل مباشر في مواجهة إسرائيل. ولم تكتفِ جماعة الحوثي بالتصريحات الخاصَّة بدعم القضية الفلسطينية والطوفان، بل استخدمت أدواتها العسكرية وأذرعها البحرية والتكنولوجية في شنِّ هجمات مؤثِّرة في سُفُن وبواخر تابعة لإسرائيل أو للولايات المتحدة ولحلفاء إسرائيل في منطقة بحر العرب، وشكَّلت حالة تعبوية شعبية، على مستوى تشكيل ألوية مصغَّرة لتدريب المتطوِّعين من أجل الذهاب للقتال في فلسطين في حالة الحاجة إلى ذلك

(على المستوى الدعائي على أقلّ تقدير)، وهدَّدت كذلك بغلق مضيق باب المندب. فضلًا عن استخدام جماعة الحوثي الأداة الاعلامية في ترويج عملية الطوفان ودعمها، وكما بات معروفًا أنَّ جماعة الحوثي تتلقَّى دعمًا عسكريًّا ولوجستيًّا كبيرًا من إيران، على مستوى التكنولوجيا التي تستخدمها في الطائرات المسيَّرة في أثناء هجماتها أو باتّجاه البواخر والسُّفُن المارَّة عبر الممرّات البحرية القريبة من اليمن، بالإضافة إلى التدريبات المباشرة، التي تلقَّتها مجاميع خاصَّة تابعة لحركة الحوثي طوَّرت إمكانيات القرصنة والإنزالات البحرية. وقد جاءت تحرُّكات جماعة الحوثي بالاتّساق والتنسيق مع الموقف الإيراني المتصاعد في هذه القضية الإستراتيجية، وقد وظَّفت إيران حالة الفوضى الأمنية، التي شكَّلتها جماعة الحوثي في هذه المنطقة، واستخدمتها في استدامة الضغط على إسرائيل والقُوى الغربية كذلك، فقد دخلت هذه التحرُّكات الإيرانية ضمن حالة التصعيد منضبِط الحدَّة، التي جرى استخدامها للمساومة واستدامة الزخْم[17].

وبينما تندرج عملية توظيف «طوفان الأقصى» ضمن فكرة وإطار التوظيف الإستراتيجي الإيراني للقضية الفلسطينية، فقد استخدمت إيران العملية لتمرير مجموعة من الرسائل، أهمُّها[18]:

1. التسويق الأمني لنفوذ إيران:

منذ سنوات عديدة، تسوِّق إيران نفسها باعتبارها الراعي الرسمي، ويكاد يكون الوحيد لحركة حماس. واستعرضت إيران في تقارير مستمِرَّة، مباشرة وغير مباشرة، بثَّتها وسائل إعلام شبه رسمية ونشرتها دراسات ودوريات إيرانية، أنَّها تدعم «حماس»، من خلال المال والتدريب والتأهيل وتطوير القُدرات القتالية واللوجستية على مستوى العتاد والتكنولوجيا العسكرية. في حين أنَّ إيران، عبر دعمها هذا، جعلت من حركة حماس أمام حالة من حالات الاستخدام والتوظيف الإستراتيجي لتحقيق أهداف إيرانية عميقة، أهمّها الضغط على إسرائيل والغرب، وإيصال رسائل عبْر حُلفاء فصائليين محلِّيين أنَّ إيران ستبقى تتحكَّم بملف أمن المنطقة الإستراتيجي، بما في ذلك أمن إسرائيل[19].

2. توحيد الساحات وتعزيز الموقف التفاوضي في مواجهة الغرب:

على الرغم من أنَّ علاقة حركة حماس بإيران تُعَدُّ من العلاقات المعقَّدة، فإنَّه لا يمكن توصيفها على أنَّها علاقة تابع ومتبوع، بقدر ما هي علاقة تَخادُم إستراتيجي تبحث خلالها «حماس» عن تطوير قُدراتها، وبالمقابل تستخدمه إيران ورقة إقليمية لتحقيق أهدافها الإستراتيجية، فقد سوَّقت إيران، وعبر دعمها لعملية «طوفان الأقصى»، أنَّ محور المقاومة في العراق وسوريا ولبنان، وكذلك في فلسطين، قادر على ضرب العُمق الإسرائيلي، كما حذَّر هذا المحور في السابق، فضلًا عن تسويق فكر إثبات نبوءات المرشد الإيراني الأعلى

علـــي خامنئي، الذي دائمًا ما تحدَّث عن إمكانية زوال دولة إســـرائيل من الخارطة. كل ذلك جرى تسويقه واستخدامه دعاية لإقناع شعوب المنطقة أنَّ إيران تُناصر القضايا الإنسانية العادلة، وأنَّها تدعم محور العدالة والإنســـانية ضدّ محور الشر والقتل العالمي، في حين أنَّ إيران اســـتخدمت ورقة «حماس» على طاولة المفاوضـــات النووية أكثر من مرَّة لأغراض تتعلَّق بتحقيق تهدئة مع إســـرائيل من أجل تخفيف الضغط الغربـــي والحصار على إيران، بالإضافة إلى كسْب مزيد من الوقت لإنضاج البرنامج النووي الإيراني وجعله أمرًا واقِعًا[20].

3. عرقلة وتعطيل مشروع حل الدولتين:

ترفُض إيران بشكل كبير فكرة حل الدولتين، وتنظُر للقضية الفلسطينية على أنَّها قضية حق مُطلَق مقابل باطل مُطلَق، وبالتالي أيّ حل دون زوال إســـرائيل وقيام دولة فلسطين ترفضه إيران رفضًا مباشـــرًا. وفي حقيقة الأمر، فإنَّ حل الدولتين، إنْ تحقَّق على مســـتوى القضية الفلسطينية، سيســـحب من إيران ورقة ضغط كبيرة كانت تستخدمها عبر محور المقاومة للضغـــط على المســـتوى الإقليمي والدولي، وكما أشـــرنا إلى وجود توظيف إســـتراتيجي تســـتخدمه إيران بوجود هذه القضية، لهذا كانت إيران ولا تزال تدعم فكرة قتال إســـرائيل ومقاومتها من حلفائهـــا الفصائليين المحلِّيين، ودعمت قضية «طوفان الأقصى» لتحقيق نوع من الاستدامة الإستراتيجية، وتعطيل مشـــروع حل الدولتين، الذي إنْ تحقَّق سيقطع على إيران الطريق أمام أيّ استخدام وتوظيف للقضية الفلسطينية[21].

4. الإرباك الإقليمي والحرب المحدودة:

أثبتت إيران، عبر توظيف عملية «طوفـــان الأقصى»، قُدرتها على تحقيق حالة من حالات الإرباك الإقليمي وشنّ الحروب الإقليمية المحدودة، عبر حلفائها الفصائليين المحلِّيين في العراق وسوريا ولبنان وفلســـطين. فعلى الرغم من إعلان إيران عدم علمها بتوقيت العملية وقـــرار تنفيذها، فإنه لا يمكن إغفال محاولة إيران الاســـتفادة منها، كما لا يمكن إغفال دور إيران في زراعة الفصائل المسلَّحة في العراق وسوريا ولبنان، وكيف تخادمت هذه الفصائل معًا لتطوير قُدرات «حمـــاس» وإيصال السلاح إليها، إذ نفَّذت «حماس» عملية «طوفان الأقصـــى» بطريقة احترافية كبيرة، لا يمكن بأي شكل مـــن الأشكال أن تنفِّذها بإمكانياتها المحدودة، دون وجود جهة وأطراف ومجاميع مسانِدة وراعية لها[22].

5. توظيف التطبيع مبرِّرًا للتدخُّل في المنطقة:

استخدمت إيران عملية «طوفان الأقصى» لتجديد اتّهاماتها للأنظمة السياسية المطبِّعة مع إســـرائيل، وركَّزت إيران في كلمات جاءت على لســـان قيادتها -بمن فيهم المرشد- بعد عمليـــة الطوفان، على أن دولًا عديدة دعمت إســـرائيل في قتلها الفلســـطينيين، وكان هذا الدعم عبر تطبيع العلاقات معها، في إشارة إلى الدول العربية المطبِّعة مع إسرائيل، فضلًا عن توظيف عملية «طوفان الأقصى» إيرانيًّا لتشـــويه وتضليل، ورُبما ردْع، أيّ عملية سلام

يمكن أن تجري مستقبلًا بين دول عربية وإسرائيل، حتى ضمن فكرة حل الدولتين. وبذلك، حقَّقت إيران نوعًـا من التضليل الإعلامي والاجتماعي، عبر تسـويق نفسـها جهةً راعيةً للقضية الفلسطينية وداعِمة لها، وتصوير بعض الدول العربية على أنَّها تعمل ضدّ القضية الفلسطينية، لكي تُحرِج هذه الدول أمام شعوبها إذا ما قرَّرت التطبيع مع إسرائيل[23].

ثالثًا: انعكاسات عملية «طوفان الأقصى» على إيران والفواعل الفصائلية

كشـفت عمليـة «طوفـان الأقصـى» عـن طبيعـة الصـراع المعقَّـد، الـذي تخوضـه إيـران ووكلاؤهـا فـي المنطقـة، لذلـك لـم تنحصـر المعركـة فـي حـدود الأراضـي الفلسـطينية، بـل إنَّهـا شـمِلَت المنطقـة ككُلّ، وتحديـدًا السـاحات، التـي تمَّتلـك فيهـا إيـران نفـوذًا راسـخًا ومؤثِّـرًا. ويمكـن رصْـد ارتـدادات وتداعيـات هـذه العمليـة علـى إيـران وفصائلهـا مـن خلال مـا يأتـي:

1. مكاسب إيرانية على حساب الفلسطينيين:

أ. تعطيل حل الدولتين وخلْق تحدٍّ أمام مسـار التطبيع: على المستوى الإقليمي، فضلًا عن تعطيل مسـار التطبيع، الذي كان سيفرض تحدِّيات إسـتراتيجية وجيو-سياسية وكذلك اقتصادية علـى إيران، فإنَّ عملية «طوفـان الأقصى» والحرب، التـي اندلعت على أثرها في غزة، عطَّلـت تطوير فكرة حل الدولتين، إذ إنَّ جهودًا كبيـرة تبذلها مجموعة من الدول الخليجيـة، بالإضافة إلى الولايات المتحدة الأمريكية وتركيـا، لتطوير آلية جديدة تضمن للفلسطينيين إنشـاء دولتهم المستقِلَّة وتوقيع اتفاقيات السلام. ولا شكَّ أنَّ حل الدولتين يمثِّل حجر عثرة كبيـرًا تجاه التوظيف الإيراني للقضية الفلسـطينية، لـذا جاءت عملية «طوفان الأقصى» بنتائج عرقلت معها إمكانية الاستمرار في طرح فكرة حل الدولتين على المـدى القريب على أقلّ تقدير، في ظل وجود نيّات لحركة حماس للقتال بشكل مسـتمِرّ، فضلًا عن وجود تيّار متطرِّف يقود إسـرائيل بزعامة رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو. إضافة إلى ذلك، فإنَّ عملية التطبيع من بعض الدول العربية مع إسرائيل تعرَّضت لاختبار أخلاقي جديد، فقد لامت الشـعوب والمجتمعات العربية كثيرًا الـدول التي طبَّعت علاقاتها، في ظل ما يحدث من قصْف واسـتهداف للمدنيين في غزة، بالتالي ستكون المنطقة، وتحديدًا الدول التي لديها نيّات تطبيع، أمام تحدٍّ أخلاقي جديد في المرحلة المقبلة[24].

ب. إيـران خـارج المواجهـة دائمًـا: كمـا هـو معتـاد فـي السياسـة الإيرانيـة، فإنَّهـا دائمًـا مـا تدعـم مثـل هكـذا أعمـال وسـلوكيات، دون تحمُّـل مسـؤولية مباشـرة. وقـد درَجَ الفعـل الإسـتراتيجي الإيرانـي علـى هـذا العمـل فـي العـراق، عبـر عمليـات اسـتهداف القواعـد والمصالـح الأمريكيـة مـن خلال المليشـيات التابعـة لهـا، فـضلًا عـن تكـرار نفـس الأفعـال فـي سـوريا، فـي حيـن لا تتبنَّـى إيـران هـذه العمليـات بـشكل رسـمي، وفـي بعـض الأحيـان تنفـي صِلتهـا بهـا بـشكل مباشـر. وعلـى الرغـم مـن أنَّ الهجمـات الأخيـرة بيـن إسـرائيل وإيـران، التـي جـرى فيهـا تجـاوُز حـرب الظـل التقليديـة، فإنَّـه مـن غيـر المرجَّـح أن يدخـل

البَلَـدان فـي مواجهـة مباشـرة، والأغلـب أنَّهمـا سـيكتفيان برسـائل الـردع، التـي انطـوت عليهـا الهجمـات السـابقة، والعـودة إلـى قواعـد الاشـتباك غيـر المباشـر. وكمـا سـتعزِّز إيـران عملياتهـا غيـر المباشـرة عبـر مليشـياتها، فـإنَّ إسـرائيل سـتعود إلـى عملياتهـا، التـي يمكـن إنكارهـا داخـل حـدود إيـران أو فـي مناطـق نفوذهـا، كمـا سـتذهب إلـى الضغـط علـى الإدارة الأمريكيـة لتعميـق سلسـلة الضغوطـات الاقتصاديـة والعسـكرية علـى إيـران، أو عبـر اسـتكمال العمليـات، التـي نفذتهـا إسـرائيل داخـل العُمـق العراقـي، وقصْـف مواقـع علـى الحـدود العراقية–السـورية تابِعـة للحـرس الثـوري الإيرانـي[25].

ج. ضربـة مؤلمـة لإسـرائيل: **علـى الرغـم** مـن أنَّ إيـران قـد لا تكـون طرفًـا فـي القـرار المباشـر لعمليـة «طوفـان الأقصـى»، لكنَّهـا بلا شـك طـرفٌ أساسـي، باعتبارهـا داعمًـا ومسـانِدًا لفصائـل المقاومـة الفلسـطينية قبـل العمليـة وبعدهـا. وقـد أثبتـت العمليـة علـى المسـتوى الإسـتراتيجي أنَّ إسـرائيل تعانـي بـشكل كبيـر مـن معضلتيـن أساسـيتين، هُمـا، معضلـة الجغرافيـا الضيقـة، ومعضلـة العنصـر البشـري المحـدود، إذ لا تمكِّـن هاتـان المعضلتـان إسـرائيل مـن اسـتخدام جميـع تكتيـكات وإسـتراتيجيات الحـرب، وتفعيـل خيـارات الـردع كافـة. فعلـى سـبيل المثـال، لا تسـتطيع إسـرائيل أن تدخـل حربًـا طويلـة الأمـد تمتـدّ لأكثـر مـن 8 إلـى 12 أسـبوعًا، كمـا أنَّهـا لا تسـتطيع أن تنفـذ عمليـات اجتيـاح برِّي لغـزة للتمركُـز والبقـاء فيهـا وتطهيرهـا، بالإضافـة إلـى أنَّ خيـارات المواجهـة ليسـت مفتوحـة بسـبب ضيـق المسـاحة والقيمـة الكبيـرة للعنصـر العسـكري والأمنـي الإسـرائيلي.

وعلـى المسـتوى الإسـتراتيجي، قـادت عمليـة التسـلُّل إلـى جُملـة مـن الانعكاسـات، أهمّهـا شـلل الاقتصـاد الإسـرائيلي وتحوُّلـه إلـى اقتصـاد حـرب، وتوقُّـف الزراعـة والصناعـة والتجـارة والسـياحة والتعليـم والبنـاء، فـضلًا عـن حـدوث حالـة تضخـم مالـي تـزداد مـع اسـتمرار الحـرب، بالإضافـة إلـى الآثـار الاجتماعيـة، التـي تتعلَّـق بالهجـرة العكسـية، وحالـة الصدمـة والرعـب التـي تعـرَّض لهـا المجتمـع الإسـرائيلي، وانهيـار الثقـة المجتمعيـة بحكومـة نتنياهـو وبقُـدارت الجيـش والأجهـزة الأمنيـة.

ومـن الواضـح أنَّ المجاميـع المسـلَّحة الفلسـطينية، التـي نفَّـذت العمليـة، تقدَّمـت بخطـوة علـى الجيـش الإسـرائيلي فـي الأيـام الأولـى لعمليـة «طوفـان الأقصـى»، كـون هـذه المجاميـع هـي التـي بـدأت الهجـوم المباغِـت، وحصلـت علـى ورقـة تفاوضيـة ضاغِطـة، وهـي ورقـة «الأسـرى والرهائـن». وقـادت هـذه الخطـوة إلـى تحجيـم خيـارات الفعـل العسـكري الإسـرائيلي، وتقليـص أدوات العمـل تجـاه غـزة، لوجـود مُحتجَزيـن إسـرائيليين (علـى أقـلّ تقديـر صعَّبـت بـشكل كبيـر التفكيـر فـي عمليـة اجتيـاح إسـرائيلي برِّي شـامل لغـزة)، كـون هـذه الخطـوة قـد تكـون مَحرقـة كبيـرة ضمـن نطـاق حـرب شـوارع، لا تسـتطيع تحمُّلهـا الأجهـزة العسـكرية الإسـرائيلية بسـبب تكلفتهـا البشـرية العاليـة. لهـذا، فرضـت

المجموعة المسلَّحة المهاجِمة إيقاعًا بمستوى معيَّن للمواجهة، حدَّ من الخِيارات الإسرائيلية المفتوحة وقلَّصها.

2. التحدِّيات والآفاق المستقبلية:

بقدر ما أكسبت عملية «طوفان الأقصى» إيران من فُرَص، فإنَّها فرضت عليها وعلى الفصائل التابِعة لها تحدِّيات، يمكن توضيحها على النحو الآتي:

أ. تقييد حدود حركة إيران: على الرغم من كل التصعيدات، التي رافقت الأيام الأولى لعملية «طوفان الأقصى»، فإنَّ هذا التصعيد كان ذا هدف رئيسي ومباشر، وهو تقديم دعْم كبير لإسرائيل في حربها ضدّ «حماس»، بالإضافة إلى إتاحة الفُرصة لإسرائيل لتنفرد وحدها بقتال «حماس»، وتحييد أصدقائها وحلفائها. وهذه دلالات على عدم رغبة الولايات المتحدة، وحتى الجهات الحليفة لـ«حماس»، في دخول حرب إقليمية مفتوحة، فالبارجات الأمريكية والأوروبية، فضلًا عن المناورات التي جرت في منطقة الخليج العربي والبحر المتوسِّط والبحر الأحمر ونشْر القطع البحرية وحاملات الطائرات، كل ذلك كان لإرسال رسالة واحدة ومباشرة، وهي تحقيق نوع من الردع الصُّلب تجاه إيران و«حزب الله» والنظام السوري والفصائل العراقية وجماعة الحوثي، وأيّ جهة أخرى تفكِّر في الاشتراك في هذه الحرب إلى جانب «حماس»، كون هذه الجماعات بدأت هي الأخرى مناوراتها واستعراضاتها ودخولها حالة تأهُّب كبيرة لاحتمالية الدخول في الحرب، إذ عمِلَت الولايات المتحدة على إبقاء الحرب محدودة[26].

ب. تطوير إستراتيجية الضربات الذكية للمليشيات التابِعة لإيران: على الرغم من حالة التوازن والتصعيد منخفِض الحِدَّة، الذي أبدتها أغلب الأطراف، سواء التي وقفت مع إسرائيل أو «حماس»، فإنَّ الباب لا يزال مُوارَبًا أمام ضربات ذكية، يمكن أن تنفِّذها إسرائيل، بوصفها جزءًا من إستراتيجية استدامة واستباق الفصائل المسلَّحة في المنطقة، إذ إنَّ ترْك هذه الفصائل حسب الرؤية الإسرائيلية سيجعلها أكثر شراسة، ويمكن أن تنفِّذ هجمات أكثر عُنفًا في المستقبل. بالتالي، فإنَّ إجراء ضربات ذكية وتفكيك منظومات هذه الفصائل، عبر ضرب قواعدها ومراكز التخطيط والتعبئة الخاصَّة بها واغتيال قادتها، سواء في العراق أو إيران أو سوريا أو لبنان، هي واحدة من أهمّ التداعيات، التي يمكن الوقوف عليها في مرحلة ما بعد الحرب على غزة[27].

ج. احتمال خسارة إيران نفوذها داخل فلسطين: من غير المرجَّح أن تتوقَّف إسرائيل عن تطوير آليات لمواجهة «حماس»، حتى بعد نهاية الحرب على غزة، سواء عبر إستراتيجية شاملة، أو تكتيكات فرعية تشمل العمليات الخاطفة والاغتيالات المباشرة لقادة «حماس» في مختلف دول العالم، وضرْب أهداف ومواقع داخل وخارج غزة، لشلّ قُدرات «حماس» بصورة استباقية قبل تطوُّرها، كما حدث في عملية «طوفان الأقصى». ورُبما من الصعب وقف إسرائيل، لأنَّها تتذرَّع بحُجَّة الدفاع عن النفس أمام

المجتمع الدولي، وتستند إلى الدعم الأمريكي والغربي. وفي حال نجاح إسرائيل في القضاء على «حماس» وفصائل المقاومة، فإنَّ إيران ستكون خسِرَت حليفًا مهمًّا على الساحة الفلسطينية، وهو ما قد يحرمها من ورقة ضغْط قوية في حربها غير المباشرة مع إسرائيل[28].

إنَّ حل الدولتين، وعلى الرغم من رفضه من عدَّة أطراف، منها الجناح اليميني في إسرائيل وحركة حماس وإيران، فإنَّه من المتوقَّع أن يُعاد طرحه ضمن مبادرات وصفقات تسوية دولية في المنطقة، بالتالي سيجري تجريد إيران بشكل كبير من المتاجرة بـ«القضية الفلسطينية»، التي كانت تستخدمها وقودًا لإشعال الفِتن في المنطقة والتدخُّل فيها. فعلى الرغم من عدالة القضية الفلسطينية، فإنَّه من الصعب الحديث عن نيّات إيرانية خالصة لدعم هذه القضية، دون وجود نيّات قومية فارسية تتعلَّق بالتمدُّد عبر استخدام التشيُّع وقضايا مظلومية الشيعة والمسلمين في العالم.

د. أُفُق جديد للمواجهة بين إسرائيل وإيران: من المتوقَّع بعد انتهاء العمليات في غزة، أو في أثناء هذه العمليات -على اعتبار أنَّ إسرائيل لا تستطيع فتح جبهتين في آنٍ- أن تبدأ إسرائيل صياغة نوع من الردّ أبعد من غزة، لاستهدافٍ يشمل كلًّا من النظام السوري و«حزب الله» بالأساس، من خلال تنفيذ ضربات مباشرة وعمليات اغتيالات كبيرة لقادة سوريين ولبنانيين وفلسطينيين وإيرانيين في سوريا ولبنان، وضرب مواقع عسكرية وسياسية وتدريبية ومقار للقيادات المتعدِّدة داخل هاتين الدولتين. وقد يجري العمل بشكل جَدِّي على إعادة إحياء فكرة إسقاط النظام في سوريا، عبر التحشيد الدولي المستمِرّ، نتيجة ارتباطه بشكل غير مباشر بهذه العملية. ورُبما يشمل الردّ على إيران ومصالحها وأصدقائها في العُمق الإيراني والعراقي، كون التقارير الاستخباراتية الإسرائيلية، حسب إشارة سابقة، تؤكد استخدام الحدود العراقية-السورية من إيران لغرض تمرير أسلحة وتكنولوجيا ومعدّات وصواريخ باتجاه غزة من البحر والبر. وبالتالي يمكن أن يوجد ردّ إسرائيلي، يشمل قصف مواقع نووية إيرانية ومقار للحرس الثوري الإيراني، واغتيالات مباشرة بطائرات مسيَّرة وهجمات سيبرانية وانتقامية، وضربات على الحدود العراقية-السورية، ومزيد من التحشيد الدولي لحصار إيران ومَن يتعامل معها.

ونظرًا لأنَّ إيران تنظُر إلى الفصائل التابعة لها باعتبارها مجاميع تلعب دور الخادم المحلِّي لتطوير وتصعيد قضايا معيَّنة تستخدمها لأغراض المُشاغلة والضغط على دول الخليج وإسرائيل والغرب، فعلى هذا الأساس يمكن الحديث عن مسارات تكتيكية يمكن أن تنفذها هذه الفصائل، وذلك من خلال دفْعها إلى القتال لصالح الأنظمة السياسية في العراق وسوريا ولبنان واليمن، كون هذه الأنظمة السياسية قريبة بشكلٍ كبير من إيران. بالتالي، فإنَّ أيّ محاولة لتغيير المعادلات السياسية

والأمنيـة والاقتصاديـة فـي هـذه الـدول، سـتعطل هـذه الفصائـل هـذه الأفعـال لكـي تبقـى محافظـة علـى نفوذهـا. ولعـلَّ قمـع «ثـورة تشـرين» فـي عـام 2019م أكبـر دليـل علـى ذلـك فـي العـراق، ومـا تقـوم بـه الآن الأجهـزة القضائيـة والفصائـل المسـلَّحة مـن احـتكار الدولـة لنفسـها، كذلـك فـضلًا عـن أدوار هـذه الفصائـل فـي حمايـة النظـام السـوري، وحمايـة نفـوذ «حـزب الله» فـي لبنـان. بمعنـى أدقَّ، فـإنَّ أدوار هـذه الفصائـل سـتكون ضمـن هـذا السـياق الإقليمـي.

وبقـدر تعلُّـق الأمـر بعمليـة «طوفـان الأقصـى»، فمـن غيـر المُرجَّـح أن تدفـع إيـران «حـزب الله» أو النظـام السـوري أو الفصائـل القريبـة مـن الحـدود مـع إسـرائيل إلى التدخُّـل المباشـر، غيـر أنَّ ذلـك لـن يكـون إلّا حالـة مؤَقتـة، لتبـدأ مـن جديـد مرحلـة أخـرى مـن التصعيـد مـا بعـد الحـرب. بمعنـى آخـر، فـإنَّ إيـران سـتُبقِي أدواتهـا الفصائليـة الحليفـة معهـا عقائديًّـا مثـل «حـزب الله»، أو القريبـة منهـا براغماتيًـا مثـل «حمـاس»، ضمـن دائـرة الاهتمـام، لتكـرار عمليـات الضغـط علـى إسـرائيل فـي المرحلـة المقبلـة.

وقـد تذهـب إيـران عبـر هـذه الفصائـل إلـى الضغـط علـى الغـرب وحلفائـه الإقليمييـن، إذ كلَّمـا زاد الخنـاق علـى إيـران، ضغطـت إيـران فـي العـراق وسـوريا ولبنـان علـى الغـرب وأصدقـاء الغـرب فـي المنطقـة، بمعنـى آخـر، تنفيـذ عمليـات تصعيديـة مباشـرة مـن هـذه الفصائـل لضـرب أهـداف إسـتراتيجية (قواعـد أمريكيـة وغربيـة، مقـار لسـفارات غربيـة، شـركات نفـط، مطـارات، منصَّـات اقتصاديـة فـي الخليـج، وأيّ مصالـح أخـرى قريبـة مـن الغـرب). هـذه العمليـات يمكـن أن تتصاعـد عبـر هـذه الفصائـل، فـي حـال تصاعُـد الضغـط الغربـي علـى إيـران، علـى مسـتوى الملـف النـووي مـن جهة- أو علـى مسـتوى العقوبـات الاقتصاديـة، التـي يمكـن أن تُفـرَض علـى إيـران، فـضلًا عـن وجـود نيّـات إسـرائيلية لتنفيـذ ضربـات خاطِفـة، سـواء عسـكرية مباشـرة أو سـيبرانية، لأهـداف إيرانيـة أو صديقـة لإيـران فـي المنطقـة، وبالتالـي فـإنَّ الـردّ الإيرانـي سـيكون بـشكل مباشـر، عبـر أذرعهـا فـي العـراق وسـوريا ولبنـان واليمـن، وحتـى فـي غـزة.

وبينمـا تقلـق إيـران مـن فكـرة حـل الدولتيـن فـي المرحلـة المقبلـة، باعتبـار أنَّهـا سـتفقد حجَّـة كبيـرة مـن حجَـج التدخُّـل فـي المنطقـة، وهـي توظيـف القضيـة الفلسـطينية كمـا حـدث فـي عمليـة «طوفـان الأقصـى»، فإنَّهـا قـد تسـتخدم أذرعهـا وفصائلهـا لإنشـاء فوضـى جديـدة فـي المنطقـة مـن أجـل إربـاك الأجـواء الإقليميـة، لا سـيّما إذا مـا علِمَنـا بوجـود جهـات حليفـة لإيـران، وهـي قـوّات سـوريا الديمقراطيـة، التـي تسـيطر علـى مخيّـم الهـول فـي سـوريا، الـذي يحـوي أكثـر مـن 53 ألـف عائلـة مـن عوائـل تنظيـم داعـش، فـضلًا عـن سـيطرة قـوات سـوريا الديمقراطيـة علـى سـجن غويـران فـي سـوريا، الـذي يضُـمّ أكثـر مـن 1500 عنصـر مـن عناصـر «داعـش» المقاتليـن. وبالتالـي، فـإنَّ أيّ انـفلات يمكـن أن يحـدث فـي

هاتين الوحدتين، يمكن أن يُحدث فوضى عارمة قد تصِل ارتداداته إلى العراق وسوريا ولبنان، ورُبما الخليج وسيناء وغيرها من المناطق القريبة.

الخاتمة

قدَّمت عملية «طوفان الأقصى» فُرصة كبيرة لإيران لكي توظِّفها في مسارات التعامل الدولي والإقليمي مع الغرب وحلفاء الغرب في الشرق الأوسط، إذ على الرغم من أنَّها عملية خاصَّة بـ«حماس» من حيث القرار والتنفيذ والتبِعات، فإنَّ إيران وعديدًا من القُوى الأخرى، ومنها الفصائل المسلَّحة في العراق وسوريا والنظام السياسي في سوريا والفصائل في لبنان، قد طوَّرت قُدرات «حماس» وأوصلتها إلى مستوى متقدِّم من الجهوزية لتنفيذ هذه العملية. وقد وظَّفت إيران الفصائل المسَّلحة في العراق وسوريا ولبنان لصالح استدامة قوَّة «حماس» قبل عملية «طوفان الأقصى»، وحاولت أن تصنع نوعًا من المشاغلة التصعيدية في هذه الدول، عبر هذه الفصائل، لكن سرعان ما تراجعت إيران بفعل الضغط الدولي واقتراب البارجات وحاملات الطائرات النووية الأمريكية، التي جعلت إيران تترك «حماس» في مواجهة إسرائيل دون أيّ دعْمٍ مُستدام لمرحلة ما بعد عملية «طوفان الأقصى»، واكتفت بالمواقف الإعلامية والدعائية المسانِدة لغزة وأهل غزة، كما اكتفت باستخدام «حماس» عبر القنوات الخلفية للحوار، «قنوات الدبلوماسية السرِّية والمفاوضات المخابراتية». ولا شكَّ أنَّ هذه الضغوط قد تزيد على إيران في المستقبل، لا سيّما أنَّ الحرب ستغيِّر كثيرًا من معالم عقيدة الجيش الإسرائيلي، إذ من غير المتوقَّع أن تكتفي إسرائيل بالردّ داخل غزة فقط، إنَّما يُتوقَّع أن ترُدّ إسرائيل، انعكاسًا لما حصل لها، من خلال مجموعة من الاتّجاهات والدول، ومنها لبنان و«حزب الله» والفصائل المسلَّحة في العراق وسوريا، فضلًا عن احتمالية حدوث سلسلة مطوَّلة من المواجهات والعمليات الخاطِفة غير المُعلَنة بين إسرائيل وإيران، وفق فروض حروب الظل الطويلة، «حروب الاغتيالات والطائرات المسيَّرة والمواجهات السيبرانية». وقد يكون العراق هو الكلمة المفتاحية في وقف نفوذ إيران الإقليمي، الذي كان متَّصِلًا بطريقةٍ ما بعملية «طوفان الأقصى»، لهذا قد يكون في حُسبان الولايات المتحدة وإسرائيل أنَّ أيّ عملية وقف لشبكة الفاعل العنيف أو ما يُعرَف بالفصائل المسلَّحة المنتشِرة في المنطقة، لا يمكن أن ينجح ما لم يوجد تحرُّك فعلي في العراق، كونه يمثِّل مفتاح المنطقة لإيران، وأنَّ وقف تمدُّد إيران في المنطقة يبدأ من العراق، وأنَّ مدخل ذلك التغيير هو الدعم المباشر لجهود الدولة العراقية ومساندتها بشكل مباشر لوقف توظيف إيران الفصائل المسلَّحة في الشرق الأوسط.

المراجع والمصادر

(1) كريسبين سميث ومايكل نايتس، إعادة تشكيل العراق: كيف استولت المليشيات المدعومة من إيران على البلاد، معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى، (20 مارس 2021م)، تاريخ الاطلاع: 22 فبراير 2024م، https://n9.cl/r8syq أيضًا: محمد البازي، طوفان الأقصى: كيف نفهم العلاقة بين إيران وحماس؟، موقع الجزيرة للدراسات (16 أكتوبر 2024م)، تاريخ الاطلاع: 15 مارس 2024م، https://n9.cl/lum2p

(2) موقع الجزيرة نت، الفصائل العراقية الموالية لإيران: دروع "الثورة الإسلامية" في بلاد الرافدين"، (22 فبراير 2024م)، تاريخ الاطلاع: 26 مارس 2024م، https://n9.cl/ytx0m3. أيضًا: د.محمد السلمي، إيران وعسكرة التشيُّع في الداخل والخارج، مجلة السياسة والاقتصاد، (أسيوط: كلية العلوم السياسية، المجلد 12، العدد 11، سنة 2021)، ص6 وما بعدها.

(3) موقع القدس الإسرائيلي للشؤون العامَّة، أسلحة «حماس» المتطوِّرة: الصواريخ والمدفعية والطائرات دون طيّار والسايبر، (1 أغسطس 2021م)، تاريخ الاطلاع: 2 مارس 2024م، https://n9.cl/uhz68

(4) المعهد الدولي للدراسات الإيرانية، توظيف الحرس الثوري وحماس لصراع غزة، (6 يوليو2021م)، تاريخ الاطلاع: 16 مارس 2024م، https://n9.cl/uk0ni

(5) المعهد الدولي للدراسات الإيرانية، حماس تطلب صواريخ باليستية من طهران، (30 يوليو 2019م)، تاريخ الاطلاع: 12 مارس 2024م، https://n9.cl/m0ubt

(6) موقع المركز العربي لدراسة التطرُّف، قطر – إيران – تركيا: شبكة حلفاء حماس، (22 فبراير 2024م)، تاريخ الاطلاع: 18 فبراير 2024م، https://n9.cl/163r4.

(7) محمد سرميني، عودة العلاقات بين حماس والنظام السوري، موقع مركز جسور للدراسات، (22 يوليو 2022م)، تاريخ الاطلاع: 26 فبراير 2024م، https://n9.cl/hzvpz

(8) رسول آل حائي، هل توسِّع ضربات أمريكا لأهداف إيرانية رقعة الحرب في المنطقة؟ موقع الجزيرة، (3 فبراير 2024م)، تاريخ الاطلاع: 20 فبراير2024م، https://n9.cl/0y0yx

(9) ضياء قدور، وثائق مسرَّبة: النظام السوري أعطى ميناء اللاذقية لإيران، موقع تليفزيون سوريا، (27 سبتمبر 2023م)، تاريخ الاطلاع: 20 فبراير 2024م، https://n9.cl/gdwp4

(10) صحيفة الشرق الأوسط، إيران تعزِّز وجودها العسكري والاقتصادي في الساحل السوري، (22 مارس 2019م)، تاريخ الاطلاع: 10 فبراير 2024م، https://n9.cl/3nwhp

(11) المعهد الدولي للدراسات الإيرانية، مخاطر سيطرة الحرس الثوري الإيرانيّ على موانٍ بالساحل السوري ومدى فاعلية إستراتيجية الضغوط القصوى الأمريكية، (21 أكتوبر 2019م)، تاريخ الاطلاع: 10 أبريل 2024م، https://2u.pw/6tfBqT30

(12) سعد الوحيدي، القسّام في البحر: من العمليات الاستشهادية إلى الضفادع البشرية، تقرير موقع الجزيرة، (23 أكتوبر 2023م)، تاريخ الاطلاع: 18 فبراير 2024،م، https://n9.cl/68o2d

(13) موقع الشرق، كيف امتلكت حماس صواريخ ومسيّرات وطائرات شراعية؟ (13 أكتوبر 2023م)، تاريخ الاطلاع: 27 فبراير 2024م، https://n9.cl/ql6zxg

(14) المصدر السابق.

(15) موقع مدوَّنة كلاود فلير، عمر أوجام وجورج باجكو، الهجمات السيبرانية الدائرة بين إسرائيل وحماس، (23 أكتوبر 2023م)، تاريخ الاطلاع: 13 مارس 2024م، https://n9.cl/xq2j6r، للمزيد انظر: موقع DW، "الفضاء السيبراني: ساحة معركة أخرى بين إسرائيل وحماس" (14 أكتوبر 2023م)، تاريخ الاطلاع: 13 فبراير 2024م، https://n9.cl/ca9rz

(16) المصدر السابق.

(17) The Sacred Republic: Power and Institutions in Iran ,By Mehran Kamrava (ed.), (August 15, 2023 on the Oxford Academy of Studies website, accessed: February 3, 2024, https://n9.cl/yh9y2

(18) موقع المعهد الدولي للدراسات الإيرانية "رصانة"، عملية طوفان الأقصى.. الأسباب والتداعيات والسيناريوهات المتوقَّعة، (13 أكتوبر 2023م)، تاريخ الاطلاع: 10 مارس 2024م، https://n9.cl/526ls

(19) Haleh Esfandiar, Hamas And Israel: Iran's Role , An article published on the Wilson Center, October 10, 2023, accessed: April 3, 2024, https://n9.cl/eya3ot

(20) Colin P. Clarke , Iran and the 'Axis of Resistance' Vastly Improved Hamas's Operational Capabilities , An analytical article published on the Foreign Policy Research Foundation, (October 27, 2023), accessed: May 3, 2024, https://n9.cl/q2ysg

(21) مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، محسن محمد صالح، الدلالات الإستراتيجية لعملية طوفان الأقصى، (13 أكتوبر 2023م)، تاريخ الاطلاع: 11 مارس2024م، https://n9.cl/x8wbh، للمزيد، يوتيوب، @AlArabiya، لقاء حصري مع خالد مشعل على قناة العربية "الهجوم على إسرائيل كان مغامرة وإيران وحزب الله دعمونا بالسلاح والتكنولوجيا، https://n9.cl/io3jb

(22) موقع الجزيرة للدراسات، طوفان الأقصى: انهيار الردع الإسرائيلي ومحاولات استعادته، (8 نوفمبر 2023م)، تاريخ الاطلاع: 15

مارس 2024م، https://n9.cl/gn59h، كذلك انظر: فاطمة الصمادي، طوفان الأقصى: كيف يدير محور المقاومة المواجهة؟ مركز الجزيرة للدراسات، (21 فبراير 2024)، تاريخ الاطلاع: 15 مارس 2024م، https://n9.cl/yzc5jt

(23) حسن البراري، التداعيات الجيو-سياسية للحرب على غزة، مركز الجزيرة للدراسات، (21 فبراير 2024م)، تاريخ الاطلاع: 25 فبراير 2024م، https://n9.cl/7fusv

(24) هشام جعفر، حل الدولتين: غير قابل للتحقيق لكنّه قابل للحياة، موقع الجزيرة، (3 مارس 2024م)، تاريخ الاطلاع: 10 أكتوبر2024م، https://n9.cl/fwrf9

(25) محمد محسن أبو النور، لماذا لم تدخل إيران المواجهة بعد العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة؟ موقع المنتدى العربي لتحليل السياسات الإيرانية، (5 ديسمبر 2023)، تاريخ الاطلاع: 9 مارس 2024م، https://n9.cl/gnf7b

(26) مركز مجموعة الحوار الفلسطيني، التداعيات والمآلات المحتملة لعملية طوفان الأقصى، (20 مارس 2024م)، تاريخ الاطلاع: 21 مارس 2024م، https://n9.cl/1j4wj8

(27) رسول آل حائي، هل توسّع ضربات أمريكا لأهداف إيرانية رقعة الحرب في المنطقة؟ مرجع سابق.

(28) عمر التيس، مصير غزة بعد الحرب، موقع فرنسا 24، (16 نوفمبر 2023م)، تاريخ الاطلاع: 9 مارس 2024م، https://n9.cl/fqg89، للمزيد: موقع فرنسا 24، "ما الحلول المطروحة لإدارة غزة ما بعد الحرب في حال الإطاحة بحماس"، (21 نوفمبر 2023م)، تاريخ الاطلاع: 11 مارس 2024م، https://n9.cl/d099a